

اللغة و ظاهرة الفهم

محمد الأمين دكار
جامعة زيان عاشور الجلفة

يقول غادامير في كتابه الحقيقة والمنهج عبارة مقتضبة ولكنها ذات دلالة عميقة: «إن كل فهم هو تأويل»⁽¹⁾.

إن منطلقات أي نظرية تأويلية وبالأخص نظرية الهرمينوطيقا هي الفهم النصي في أبعاده المختلفة سواء كانت هذه الأخيرة خفية، أو متجلية، ذلك راجع بالأساس إلى أن معضلة الفهم إنما هي معضلة وجودية بأبعاد لغوية. لقد رأى شلايرماخر أنه ليس من المهم أن يكون النص الديني تعبيراً عن الروح المطلق أو عن اغتراب الإنسان ولكن المهم هو فهم النص الديني في ذاته بوصفه نصاً يحتاج مثله مثل النص التاريخي أو الأدبي للفهم، ولقد وضع لأجل ذلك أساسين من أسس المنهج الهرمينوطيقي:

1- تحديده لإجراءات الفهم الهرمينوطيقي للنصوص في طريقتين: حدس تركيبي يقف على المعنى الكلي للنص، والثاني نحوي تاريخي، تحليلي مقارنة يتقصى مكونات النص، حيث جمع بين الفهم الكلي والمقارن لأبعاد النص وسياقاته اللغوية التاريخية.

2- النص وسيط لغوي يشير في جانب منه إلى ما هو موضوعي مشترك بين المؤلف والقارئ، وهو ما يجعل الفهم ممكناً، وفي جانب آخر إلى ما هو ذاتي ويتجلى تحديداً في استخدام المؤلف الخاص لهذه اللغة.

بالإضافة إلى كل هذا أرسى شلايرماخر قواعد هرمينوطيقا تريد أن تعيد الاعتبار إلى جانبيين داخل حركة الفهم.

1- الجانب النحوي: الممارسة التي يفرضها نظام اللغة على المتكلم.

1 - Hans. Georg Gardner : Vérité et méthode des grandes lignes d'une herméneutique philosophique. traduction Française, Editions de seuil, 1996, P : 411.

2. الجانب التقني: المتعلق بالاستعمال الفردي الذي ينجزه المتكلم من خلال الخطاب، وانطلاقاً من هذا المستوى ستأخذ الهيرمينوطيقا لدى شلايرماخر شكلها السيكلولوجي.

هناك مرحلة أخرى هامة مربها مفهوم الفهم، هذه الأخيرة تجسدت في محاولة دلتاي إيجاد منهج ملائم للفهم في مجال العلوم الإنسانية سعياً لإقامة العلوم الإنسانية على أساس منهجي مخالف للعلوم الطبيعية، مركزا على أن مادة العلوم الإنسانية معطاة، وعليه فالعالم الإنساني يجد مفتاح العالم في نفسه وليس في خارجها ومنه قيام العلوم الإنسانية على التجربة الذاتية مقابل التجربة في العالم الخارجي بالنسبة للعلوم الطبيعية. والتجربة الذاتية شرط ضروري لا يمكن تجاوزه لأي معرفة ما دام أن هناك مشتركا بين الأحاد من البشر، فيصبح من المتيسر الإدراك الموضوعي خارج الذات، هذا الفهم المؤسس على التجربة الذاتية وقراءتها كما الشيء الموضوعي راجع للتعبير سواء كان في سلوك اجتماعي أو نص مكتوب (الخبرة العبير- الفهم).

- الحياة تفهم الحياة: لقد حصر دلتاي فهم النصوص في القدرة على التعامل المنهجي مع قواعد التأويل سواء تعلق الأمر بالنصوص الدينية أو بالكتابات البشرية، وهنا نلاحظ أن دلتاي استحدث تفرقة بين علوم الروح⁽¹⁾ وعلوم الطبيعة فالأولى هي العلوم الإنسانية وهي مترابطة مع الإدراكات الباطنية النفسية للقارئ والمؤلف، وترتكز على الفهم عبر طريقة الهيرمينوطيقا والنقد، أما علوم الطبيعة فتتربط مع العالم الحسي-الإنساني⁽²⁾ في علاقته بعالم الأشياء ويقوم الاختلاف بين علوم الروح وعلوم الطبيعة على الاختلاف الذي يحتويه كل من الموضوعين.

ويرى دلتاي أن العلوم الإنسانية تشمل التاريخ والعلوم السياسية وعلم الاجتماع وعلم النفس والقانون والقضاء وكل ما يتعلق بالحياة اليومية وبالمعيش البشري وهي تتطلب الفهم لأن معانيها غير ثابتة، ولا تخضع لتوجه دلالي أحادي ونهائي، في حين أن علوم الطبيعة تخضع لتعريفات محددة ومعاني قارة لا تتحول لذلك تقتضي التفسير⁽³⁾.

بهذه التفرقة المنهجية جعل دلتاي من الهيرمينوطيقا منهجا في الفهم يهتم بالفعل الثقافي الإنساني متمثلاً في الآثار المنحوتة والمرسومة والمصورة انطلاقاً من التجارب الحاضرة، وهذا يعني أن الفعل التأويلي يخترق التاريخ والفيلولوجيا من أجل استكشاف المعاني الأولى والمقاصد الكامنة وراء فعل الكتابة، ضمن قيم موضوعية يحققها الفكر الإنساني، وهكذا يكون التأويل عند دلتاي فن الفهم عبر إعادة بناء النصوص وقراءتها⁽⁴⁾.

1 - Dilthey Wilhelm : Le monde de l'esprit. Aubier Montaigne (n.d) Tomas, P : 284.

2 - Ibid, P : 259.

3 - Ibid, P : 248.

4- لمزيد من التوسع ينظر؛ بومدين بوزيد: الفهم والنص -دراسة في المنهج التأويلي عند شلايرماخر ودلتاي، منشورات الاختلاف، ط1، 2008.

مع هيدغر سيعرف التفكير في الأساس الفلسفي للهيرمنيوطيقا وجهه الأكثر صرامة، بحيث سيدير ظهره نهائيا عن الاهتمامات المنهجية الاستيمولوجية والتقنية التي التزم بها، كما ذكرنا سابقا كل من شلايرماخر ودلتاي وهذا لكي ينجر فتحا لأفق الهيرمنيوطيقا على الفهم ككيفية لوجود الدازاين.

- الفهم والإيضاح Explicitation، هذا ما سيجعل هيدغر يتجه مباشرة إلى ترسيخ ما لقبه بـ: الانعطاف الانطولوجي الذي يركز على إبراز الفهم ليس باعتباره نموذجا للمعرفة وإنما ككيفية للوجود، وهنا نشير إلى اعتماد هيدغر على المنهج الفينومينولوجي لهوسرل الداعي إلى عودة للأشياء في ذاتها لتجاوز التصورات الميتافيزيقية، إذ اعتبر هيدغر أن الوجود كما يكشف عن نفسه في الخبرة المعاشة هو السجين المحجوب الذي يجب إطلاق سراحه، والفهم عنده هو قدرة المرء على إدراك إمكانات وجوده ضمن سياق العالم الحياتي الذي وجد فيه، فالفهم ليس موهبة خاصة أو قدرة معينة على الشعور بموقف شخص آخر، فالفهم شكل من أشكال الوجود في العالم (الدازاين)، وهنا الفهم يعد أساسا للغة والتأويل هو إظهار الفهم والتصريح به، ومن هنا فالهيرمنيوطيقا تأخذ بعدا أنطولوجيا.

بالاتجاه نحو فيلسوف آخر وهو هانس غيورغ غادامير والذي ألف كتابه العمدة الحقيقة والمنهج، والذي يمثل الاتجاهات الكبرى في فن التأويل الفلسفي وهو عبارة عن ثورة إيستمولوجية في قضايا التأويل المعاصر، يميز لنا غادامير بين نوعين من الفهم:

1- الفهم الجوهرية: وهو فهم محتمل الحقيقة.

2- الفهم القصدي: وهو فهم مقاصد وأهداف المؤلف.

إن الفهم عند غادامير هو إدراك المعطيات النفسية والفردية والتاريخية التي ينطوي عليها التصريح بقضية معينة مقابل فهم ماهية هذا التصريح أو الفعل أو السلوك في حد ذاته⁽¹⁾.

إن كلاً من الفهم الجوهرية والفهم القصدي مكملان لبعضهما عند غادامير، لأن الفهم الثاني يتدخل عندما يخفق الفهم الأول في إدراك حقيقة ما، ويؤطره التساؤل التالي: ماذا كان يقصد هذا الفرد بالذات وفي خضم هذه المعركة من المفاهيم يحاول غادامير إيجاد مجموعة من الأفكار لتوضح هذه الآراء، فيلجأ إلى التجربة الفنية، كتجربة تتجلى فيها حقيقة الفهم في فهم حقيقة الآثار الفنية على ضوء المقاصد والأطر الفردية والاجتماعية والتاريخية الداخلة في تشكيلها كجملة شروط معقدة ومتعددة الأبعاد⁽²⁾.

- النص فضاء اللغة و الفهم.

- 1- مجلة فكر ونقد: العدد 25، جانفي 2000. محمد شوقي الزين. كلايفس هيرمنيوطيقا. مفتاح التأويل في قراءة التراث الإنساني. مقال في الانترنت.
- 2- مجلة فكر ونقد: مرجع سابق.

توجد مجموعة من العوامل النصية تؤثر في فهم النص ، وما نقصده هنا بالعوامل النصية المؤثرة في الفهم تلك التي تعود بنا إلى النص في مادته اللغوية ، أي أن هناك جملة من المؤثرات تدخل في عمليات الفهم عبر المنجز اللغوي المنطوق أو المكتوب و جملة هذه المؤثرات قد تؤثر سلباً أو إيجاباً في الفهم والإدراك ؛ لذلك لابد من رصد أهمها مع العمل على تبينها ، وإيضاح مدى تأثير عمليات الفهم. إذ يجب إدراك أن وجود نص لغوي ما يعتبر في حد ذاته دافعا للفهم ؛ إذ إن الإنسان ميال إلى تشغيل آليات الفهم لديه بصورة غريزية ؛ لأن تتابع الجمل أو الجملة تمارس: « تأثيراً علينا ولا تترك أمامنا خياراً آخر غير خيار محاولة فهمها . وهذا يفترض ضمناً أننا نتوفر بداخلنا على حافز ، أي أننا نعرب عن استعدادنا لمواجهة بنيات ذات صورة محددة (الجمل) بسلوك يتخذ صورة محددة ... وهذا الاستعداد للفهم يتخذ لدى غومبرس طابعاً أنثروبولوجياً عاماً .. فلا تستطيع بنية ما الحصول على معنى إلا إذا ما جاز اعتبار استعداد فهمها ظاهرة إنسانية عامة.¹ وإذا كان النص يضع المتلقي وجهاً لوجه أمام إشكالات محاولات فهمه ، فإن ذلك الفهم يمر بمراحل متعددة لعل أولها : هو إمكان التعرف على الرموز المنطوقة ، والقواعد الموجودة في سلسلة الأصوات² ، سواء أكانت قواعد صوتية صرفية أو نحوية أو معجمية دلالية.

و بناء على هذا فإن العناصر الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية هي من جملة المؤثرات النصية التي قد تصنع أو توجه أو تؤثر في الفهم ، والتعرف على تلك القواعد لا يعني التعرف على النظريات النحوية أو اللغوية المختلفة ، وإنما يعني التعرف على القواعد الفطرية القائمة في الفرد وهذا كله يدخل ضمن إطار العرف اللغوي والتي ينطق بها من غير شعور وهي محاولة علمية لتحليل اللغوي ، إذ إن ذلك بعداً آخر للفهم يحدث عن طريق المناهج اللغوية المختلفة في التحليل ، وهذا كله انطلاقاً من كون النص إطلاقاً نصاً لغوياً ، وأن اللغة ظاهرة إنسانية ، فانه من بين أهم المفاهيم التي اشتغلت بها الفلسفة المعاصرة واللسانيات ، وكذلك الحال بالنسبة للعلوم الإنسانية كعلم النفس اللغوي وعلم الاجتماع ، كما أن اللغة وسائل متعددة تظهر في أشكال الخطاب المختلفة³ ، ويستخدمها الإنسان في شؤون تعامله مع الآخرين وفي التعبير عما يدور في ذهنه من أفكار لا سبيل إلى طرحها إلا بواسطة اللغة ، ومن وسائلها في ذلك استغلال خلايا الذاكرة في الدماغ لتخزين الكلمات بدلاً من تخزين الأشكال والألوان والصفات الفيزيائية ، والمهم من كل هذا أنه كان لتطور اللغة لدى الإنسان أثر في تغيير خارطة الدماغ بشكل جوهري ، لأن مساحات واسعة كانت تستخدم للحركة والإحساس تحولت إلى هذه الوظائف. وغني عن القول إن اللغة هي الكيان الثقافي للمجتمع الذي ينتمي إليه الفرد المستخدم لتلك اللغة ، أما الخطاب (النص) فله استخدامات كثيرة ، لكننا هنا نستخدم هذا المصطلح في الدلالة لتوظيف الفرد للغة في سياق معين. فتراث اللغة مليء

1 - عز العرب لحكيم بناني : الظاهراتية وفلسفة اللغة (تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية) ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء - بيروت ، 2003 م ، ص 139.

2 - انظر : روي سي هجمان : اللغة والحياة والطبيعة البشرية ، تر: داود حلمي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط2 ، 2000 م ، ص 168 .

3- شهادة الخوري -دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب - طلاس للدراسات والترجمة والنشر -دمشق ط2 ص51

بالنصوص الجاهزة أو الممكنة التجهيز، لكن المهم هو البيئية التي يأتي فيها النص إلى الحياة، من أجل ذلك توظف الخصائص العامة للموقف بوصفها محددات للنص، أي أنها تشكل تكوينها الدلالي الذي يسعى إليه المتكلم عادة عند إنتاج نص معين، هذا النص، من وجهة نظر علم اللغة الاجتماعي، يسعى الدارسون فيه غالباً إلى التفكير في النص بوصفه متضمناً في الجمل، وليس بوصفه مكوناً منها، فالنص وحدة دلالية، إذ هي الوحدة الأساسية للإجراءات الدلالية وفي الوقت نفسه يمثل النص خياراً، النص هو الشيء المعين، أي يمكن أن يعرف النص بوصفه إمكانات المعنى المتحققة، وهنا وجب التأكيد على مسألة المنهج اللغوي بحكم أن هذا النص (المقدس/العادي) هو نص لغوي، كتب أو نزل بلغة المخاطبين، والذي يحمل ثقافتهم بين ثناياه. وفي هذا الصدد نجد مثلاً نصر حامد أبو زيد يؤكد على هذه الفكرة فهو يقول: «إن العلاقة بين النص والثقافة علاقة جدلية معقدة تتجاوز كل الأطروحات الإيديولوجية في ثقافتنا المعاصرة عن النص...»¹ كما نجد نفس المفكر يؤكد، بل يقرر بشكل واضح، أن لا مجال للتأويل دونما استخدام المنهج اللغوي، ذلك أنه هو المنهج الوحيد المتاح لفهم النص أولاً، وللوصول إلى مفهوم عنه ثانياً، إذ نجده يقول: «إن اختيار منهج التحليل اللغوي في فهم النص والوصول إلى مفهوم عنه ليس اختياراً عشوائياً نابعا من التردد بين مناهج عديدة متاحة، بل الأخرى القول إنه المنهج الوحيد الممكن من حيث تلاؤمه مع موضوع الدرس ومادته.»²

ومن المهم أن تنتقل إلى مسألة غاية في الأهمية بالنسبة لمسألة اللغة والنص، وهي مسألة الترجمة ذلك لما تقدمه لنا هذه الأخيرة في الانفتاح على مختلف الثقافات والحضارات، وهنا لا نتحدث عن الترجمة بالمفهوم الضيق، بل نتحدث عن الترجمة بمفهوم ذي طابع إشكالي، لأنه يتعلق بمسألة النص، هذا يجعل من الترجمة ممارسة تأويلية في علاقتها بالنص والمعنى والدلالة والتواصل والتلقي، وهي معطيات معرفية تحاول معرفة فاعلية النص وبعده في تشكيل المعنى، وهنا تصبح الترجمة إ عادة إنتاج وتحويل وتوليد للنص، ولغة ثالثة تجمع وتوحد بين لغتين وثقافتين عن طريق التفاعل والتثاقف.³ وبهذا تكون الترجمة عملية تواصلية توحد بين لغتين دون إلغاء المسافة التي تفصل بين الأنا والآخر، وهذا ليس عجزاً من المترجم، بل مرده إلى خصوصية اللغة والثقافة و«على هذا النحو، فليس الأمر عجزاً وإنما هو إدراك «أخرية» الآخر، معنى ذلك أن التقريب فيما بين اللغات التي تتوخاه الترجمة هو في الوقت ذاته إبعاد، أن الترجمة إذ توحد بين اللغات تعمل بالفعل ذاته على خلق الاختلاف بينهما وإذكاء حدته»⁴

1 - شحادة الخوري - دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب - طلاس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق ط2 ص51
2 - نصر حامد أبو زيد - مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن المركز الثقافي العربي - بيروت ولبنان - ط3/1993 - ص24، 25

3 - المرجع نفسه ص 25
4 - عبد السلام بن عبد العالي - مجلة فكر ونقد - دار النشر المغربية الدار البيضاء المغرب - العدد 80 ابريل/ماي - ص 34